

## الفصل الخامس والعشرون

### نظرة عامة (تتمة)

بغداد --- عمارتها --- نمط البناء --- بلاط الخليفة --- الحياة  
الاجتماعية --- الملابس --- النساء --- مركزهن --- الموسيقى ---  
الآداب --- الفلسفة --- العلوم والفنون --- المذهب العقلي ---  
إخوان الصفا

كانت بغداد مركزاً للإدارات المدنية والعسكرية التي أتينا على وصفها فيما سبق ، كما كانت قلب الإسلام النابض ، وعين العراق ، ومقر الخلافة ، ومركز الفنون ، ومثابة الثقافة<sup>(١)</sup> والجمال .

مدينة المنصور

ويقول لنا ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان : إن المنصور خط المدينة التي سماها باسمه مدورةً وجعل لها أربعة أبواب . وحفر حولها الخنادق ، وبني على كل باب قبة بالغة حداً من العلو يسمخ بدخول الفارس وهو شاهر رمح ، كما شيد حولها سورين من الداخل ، وبني في الوسط قصره الذهبي المعروف بالخلد ذي الباب الذهبي .

كذلك بني على مقربة من قصر الخلافة المسجد الجامع ، وقصور الأمراء والأشراف ودواوين الحكومة ، فأصبحت المهديّة والمنصورية في الواقع شبه دائرتين الواحدة على الشاطئ الأيمن لدجلة ، والأخرى على الشاطئ الأيسر ، وكان قطرهما يبلغ اثني عشر ميلاً ، كذلك كانت ضواحي المدينتين مليئة بالحدائق المونقة ، والقصور المنيقة الدرّي ، والمتنزهات البديعة ، والأسواق العامرة ، والحمامات الجميلة ، والجوامع الفخمة ، وجميعها تقع على جانبي النهر ، وكان سكان

(١) ياقوت الحموي .

بغداد وضواحيها - وهي في أوج عظمتها - يبلنون المليونين عدداً ، وكانت المهديّة ألخم من النصورية . أما قصر الخلافة فكانت تكنتفه حديقة غناء تبلغ مساحتها مسير عدة ساعات ، وعلاوة على معرض الوحوش الكاسرة ، والأطيّار المفردة الملحق بحديقة القصر ، كان ثمة حظيرة للحيوانات الوحشية المدة للصيد والقنص ؛ أما فناء القصر فكان مزداناً بالحدائق الحاوية كل منظر رائع من النباتات والأزهار والأشجار والأحواض ، وقد نصبت حولها التماثيل الفخمة . وكانت تحترق المدينة على جانبي النهر الشوارع القسيحة بمرض لا يقل عن الأربمين ذراعاً . وتحذثنا الرواية العربية أن بغداد كانت مقسمة إلى مربعات يقوم على رأس كل مربع « ناظر » يضطلع بالإشراف على النظافة وراحة السكان كذلك كان يقف في زاوية كل شارع حارس مسؤول عن حفظ النظام ، والمعروف أن أحد الشوارع الكبيرة أطلق عليه اسم المأمونية ، وقد كان في غاية الاتساع يمتد من نهر الملا إلى باب الأزج .

ومن بين الأبواب العديدة التي كان ينفذ منها الداخل إلى المدينة الغربية : أبواب المدينة

- (١) باب الشماسية (٢) باب القز (٣) باب البصرة (٤) باب الدير (٥) باب الشام (٦) باب البستان (٧) باب الطاق (٨) باب شيراز (٩) باب الخيزران (١٠) باب الصبيان (١١) باب التين (١٢) باب الأزج .

كذلك شيدت في ناحية المهديّة خمسة أبواب أسماها : (١) باب الغرابة (٢) باب سوق التمر (٣) باب النوبى ، وهو الباب الذى كان يقبل عتباته السفراء (٤) باب العامة (٥) باب المراتب .

وكانت جداول المياه ، وأبواب المدينة يقوم على حراستها ليل نهار جنود يقفون في الأبراج المشيدة على كلا جانبي النهر . وكانت الدور تأخذ كفايتها من الماء الذى كان ينساب فى الجداول الممتدة على طول المدينة ، كما كانت الشوارع تكس وترش بأحسن انتظام ، ولم يكن يسمح قط بإلقاء الأقدار على جانبي

الطرق أو الأزقة ؛ وكان يعلو إيوان قصر الخلد قبة حضراء يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً ، تبدو كأنها تاج العاصمة وشعار العباسيين ، وقد ركب فوقها تمثال فارس ويده رمح طويل<sup>(١)</sup> .

ميدان

كان القصر الملكي المنيف الذرى يطل على ميدان فسيح يسمى « بالرمعة » وكان يستعمل لاستعراض الجيش والتفتيش والحلبة ، وكان ذلك الميدان وجميع الشوارع تضاء بالمصابيح ليلاً ؛ والمعروف أن المنصور كان يستعرض الجيش وهو لا لبس حلتته العسكرية الكاملة ، إما واقفاً على مصطبة أو جالساً على عرش ينصب خصيصاً لأجل هذه الغاية ؛ أما الرشيد والمأمون والمعتمد فكانوا يعرضون الجيش وهم ممتطون صهوة جيادهم . وكان العرب مواعين أشد الولع بالحلبة التي لم يكن شغف أهل بغداد بها يقل عن شغف أهل دمشق في العصر الأموي ، كذلك كانوا يلعبون لعبة البولو الفارسية ( الشوكان ) في بغداد .

وكان في المهديّة ميدان فسيح تعرض فيه الجنود الذين كانت ثكناتهم تطل على الضفة اليسرى للنهر ، وكانت المصاطب الطويلة الممتدة على جانبي أبواب المدينة يجلس عليها الأهلون ليأخذوا في المسامرة والحادثة ، أو لمشاهدة جموع المسافرين والقرويين الذين كانوا يتدفقون على العاصمة من كل حدب وصوب . وكان لكل طائفة من طوائف الأجانب في العاصمة رئيس أعلى يمثلهم عند الحكومة من جهة ، ويسدى إليهم المساعدة من الجهة الأخرى كما هرعوا إليه كذلك كان مسؤولاً عن سلوكهم وحسن سيرتهم وتعرفهم .

كانت بغداد تسمى بحق مدينة القصور المشيدة بالمرمر ، وكانت العائز —

تصور بغداد

كانت ثمة خرافة هي أن السلطان إذا رأى أن ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومد الرمح نحوها علم أن بعض الحوارج يظهر في تلك الجهة فلا يطول الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجياً قد نجح في تلك الجهة .

غير أن ياقوت يقول بأن هذه القصة ليست إلا خرافة ومحض أكاذيب ، وقد انهارت القبة والتثال في ليلة مطرة شديدة الرعد في زمن المتقي ( ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م ) بعد أن قاومت مائة وتسعين سنة .

وإن لم تكن تختلف في تشييدها ونمط بنائها عن عمائر دمشق — مؤلفة من عدة طبقات ، وكان تأثير الذوق الفارسي ظاهراً جلياً في زخرفها ، وكانت تعلق على النوافذ والأبواب ستور مزركشة وحرائر مشجرة ؛ أما الغرف فكانت مزدانة بالدواوين النفيسة ، والمناضد الثمينة ، والمزهريات الخزفية ، والمرصعات والمذهبات البالغة حد الإتقان والإبداع . وكانت قصور الخليفة تتأق بالجواهر البراقة ، وقد سميت إيواناتها البديمة بأسماء زيتها ، فعرف أحدها بدار الشجرة لاحتوائه على شجرة مصنوعة من الذهب ، مكلفة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وقد وقفت على أفنانها أنواع الطيور المصنوعة من الذهب والفضة ، كذلك كان ثمة إيوان آخر يسمى « إيوان الفردوس » تتدلى من سقفه الثريات الفخمة المطعمة بالجواهر ذات الألوان والنقوش البالغة حد السحر والبهاء . وقد كانت قصور العطاء المنيفة<sup>(١)</sup> تطل على النهر من كلا الجانبين ، وقد اكتتفتها الحدائق الغناء والبساتين الموقفة ، والسلام المرمرية المؤدية إلى حافة النهر الذى يفهم النفوس بالفتنة والإعجاب ، وذلك أن العين لم تكن لتقع إلا على ألوف الزوارق المزدانة بالأعلام التى تنعكس ألوانها على مرآتها المجلوة ، وهى تحمل ركابها المرحين من محل إلى آخر ، فى حين كانت ترسو على الأرصفة الممتدة إلى عدة أميال على ضفاف النهر الأساطيل الكاملة والسفن البحرية والنهرية من كافة الأحجام والأنواع .

الجوامر

اشتهرت المساجد الجامعة فى ذلك الحين بفخامة البناء ، وقد نافست إن لم تكن قد بزت مسجد الوليد بدمشق فى الإبداع الهندسى وفخامة الزخرف ، وقد كان فى كل حى من أحياء المدينة — علاوة على المسجد الجامع — مسجد خاص كما كان لكل مدينة فى جميع أنحاء الإمبراطورية مسجد جامع بالغ حد الإبداع فى الزخرف والبناء .

(١) بقول ناصرى خسرو وذلك فى القرن الحادى عشر : إن جانبى النهر حقى مدينة الأبله

كانا مزدانين بالقصور والحدائق والبساتين .

كذلك أنشأ العرب في العاصمة والحواضر كليات ومستشفيات وملاجئ<sup>(١)</sup> لكلا الجنسين ، وكان يرأس الكلية عميد مستقل في عمله . أما مستشفيات الدولة فكانت تحت إشراف أطباء مشهورين ، وقد كان أبو بكر الرازي<sup>(٢)</sup> يشغل هذا المنصب في عهد المكتفي ؛ ويلوح لنا أنه كان لكل ملجأ قاض غير أنه يصعب علينا في الوقت الحاضر معرفة كنهه الواجبات التي كانت ملقاة على عاتق هؤلاء القضاة ، كما بلغت الكلية النظامية التي شيدت في عهد نظام الملك في سنة ١٠٦٧ م والمستنصرية التي شيدها المستنصر بالله سنة ٦٢٣ هـ (١٢٣٦ م) شأواً عظيماً من الشهرة والكمال في العالم الإسلامي ، هذا عدا الكليات القديمة التي لم تكن لتقل عنهما شهرة ، وكان الطلاب يقدون عليها وعلى الكليتين الجديديتين من سائر أنحاء العالم ، كذلك كانت حواضر الولايات الأخرى تنافس العاصمة في كلياتها التي كانت تشيد تحت رعاية الخليفة أو أحد أعيان<sup>(٣)</sup> المدينة .

وكانت مواكب العباسيين تتشج دائماً بأثواب من الروعة والبهاء ، وتحدثنا الرواية العربية أنها فاقت مواكب الخلفاء الأمويين مع ما اشتهرت به من الروق والبهاء ، إذ كان رجال الحرس الملكي يسيرون بيزاتهم الفخمة في بادئ الأمر بين يدي الخليفة ، ثم صاروا يمشون بعد ذلك بين يديه بالسلاح ؛ وكان الهادي العباسي أول من أدخل هذا النظام ، ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يجنحان إلى البساطة فلم يكن يصحبهما غير حارس أو حارسين . وكان موكب

(١) دار الشفاء أو المارستان ، وكان المستشفى الذي بناه نور الدين محمود في دمشق وصمى باسمه المارستان النوري بالفأ حد الفخامة كذلك كانت توجد مستشفيات للأمراض العقلية في سائر أنحاء البلاد .

(٢) توفي سنة ٩٢٣ م .

(٣) وكان في كل من هراة ونيسابور كلية نظامية أسسها نظام الملك ، كما أن صلاح الدين كان قد أسس كلية في القدس وسميت بالناصرية ، وكان في دمشق عدة مدارس أشهرها مدرسة الرواحية ومدرسة ست الشام أسستهما أخت صلاح الدين ، وكان في الموصل المدرسة النورية والمدرسة الزينية والمدرسة العلية الخ .

الخليفة وعلى الأخص في يوم الجمعة<sup>(١)</sup> والأعياد عندما كان يقصد المسجد الجامع للصلاة تغمره الأبهة والجلال ، فكان يتقدم الموكب الغلمان أي (رجال الحرس) على اختلاف طبقاتهم يحملون الأعلام والقارع والطبرزينات المحلاة<sup>(٢)</sup> بالذهب ثم يليهم أسراء البيت المالك على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطياً جواداً ناصع البياض وبين يديه الأشراف وكبار رجال الدولة ، ثم يأتي بعدهم بقية الغلمان . وكان الخليفة في تلك المواكب يلبس القباء الأسود أو البنفسجي الذي يصل إلى الركبة ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قبعة عالية مديبة تسمى بالقلنسوة<sup>(٣)</sup> وقد زينت بجوهرة عالية ويده قضيب النبي (ص) والخاتم ، وتتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر الثمينة ، أما القباء فكان مفتوحاً عند الرقبة فيبدو القفطان من تحته زاهياً ، كما كانت أكامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذي أمر بجملها ففضاضة ، ويقال إن عرض الأكام بلغ ثلاثة أذرع .

حفلات  
الاستقبال

وكانت مجالس الخلفاء التي كان يقلدها الأشراف والولاة في جميع الأمصار تعتمد في فيض من البذخ والروعة والبهاء ، ولم تكن مراسيمها تختلف عما كانت عليه في العصر الأموي ؛ فكانت الإيوانات الثلاثة المخصصة للاستقبال يجلس فيها رجال البلاط والأعيان ، وقد علفت على أبوابها الستور المزركشة ، وكان الخليفة يجلس في الصدر على العرش وبين يديه مائة من صفوة الحرس في أنواب زاهية وأزياء باهرة شاهري السلاح ، كما كان يقف حوله يمنة ويسرة أشراف

(١) كان الخلفاء العباسيون لا يربون أكثر ثقافة من الأمويين ، إذ كانوا باستثناء عدد ضئيل جداً برأسون صلاة الجمعة ويلقون الخطبة المعتادة .

(٢) كانت آلات الفرقة الموسيقية عبارة عن النغير (البوق) والدف والطبل والمزمار .

(٣) قد استرعى حجم وشكل لباس الرأس انتباه المستشرقين أمثال دوزي ولين ودسلين ومنتقد أنها كانت قبعة عالية مديبية من جلد الغم سوداء اللون ، وقد أخذت القلنسوة على ما يظهر عن القبعة الفارسية القديمة ، وكان المنصور أول من لبسها وقد صغر المستعين بالله حجمها فيما بعد ، ويقول الزمخشري بأن القلنسوة هي الكلمة الفارسية .

الدولة والأمراء والأعيان ، وعندما كان يرفع الستار الشفاف كان ينادى الحاجب باسم من يريد إدخاله فيقوم بتأدية الخدمة<sup>(١)</sup> والدعاء بحضرة الخليفة ، ثم يقف جانبا . أما المجالس الخاصة فكانت مقصورة على الأشراف وأمراء البيت المالك والعلماء ، وكان يراعى في هذه المجالس خلوها من الحرس ورجال الجيش المسلحين وفيها كان يجلس ولي العهد على أريكة تنصب له خصيصاً بالقرب من عرش الخليفة ، بينما كان رجال البلاط يجلسون في صفين على جانبي العرش حسب درجاتهم ، وكان الخليفة يحدّثهم أحسن محادثة ، كذلك كان الأطباء والفلكيون يروون أحدث اكتشافاتهم ، والشعراء ينشدون قصائدهم . كما كان السياح يقصون أعجب ما رأوه في رحلاتهم . ومما جرت به العادة في شهر رمضان أن يدعو الخليفة إلى مائدته كبار موظفي الدولة أو يكلف وزيره أن يقيم لهم المآدب الفخمة ، كما كان يدعو في عيد الفطر أشراف العاصمة فتتصب الأرائك في صدر البهولسكي يجلس عليها بعض كبار الدولة ، أما إذا حضر الخليفة فكان أمراء البيت هم الذين يقومون بخدمته .

الملابس

كذلك كان العطاء والأشراف بطبيعة الحال يقلدون الخلفاء في طرز اللباس غير أن الفقهاء والقضاة<sup>(٢)</sup> كانوا يلبسون العامة والطيلسان إقتداءً بالنبي (ص) أما العلمانيون — إذا جاز لنا أن نسميهم كذلك — فكانوا يلبسون القلنسوة وحدها ، وتحتها كلوثة من الحرير الأبيض ، ولكنهم اقتصروا في لبسها على داخل البيت فحسب ، وقد استعاضوا عنها فيما بعد بكلوثة خفيفة بنفسجية ، ثم استبدلوا في العصور المتأخرة بالطربوش . وكان اللباس العادي للطبقة الراقية

(١) كان من عادة العرب أن يحبوا الخليفة بوضع اليد اليمنى على الصدر وإحناء الرأس قليلاً ثم رفع اليد إلى الجبهة ولم يمارسوا المادة الفارسية بإحناء الرأس والتطامن والبلوغ إلى حد الركوع وتعفير الوجه وتقبيل الأرض لأنها لا تتناسب وروحهم الاستقلالي .  
(٢) كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص مبطنه وطيلساناً أسود ، وأول من غير لباس العلماء أبو يوسف قاضي الرشيد (ابن خلكان ص ٢٠٣ ج ٢) . (المغرب)

في العهد العباسي يشتمل على سروال فضفاض وقميص ودراعة وسترة وقفطان ، وقباء وقلنسوة مع عباءة أو جبة ، وكان الأغنياء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ويسمونها «موزاج» ، وكانت ثمة فروق ملحوظة في ملابس أصحاب المهن المختلفة . أما لباس العامة فكان يشتمل على إزار (بنطلون) وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى «قربند» ، وكانوا ينتملون الأحذية والنعال . أما الجنود خاصة فكانوا يلبسون الأحذية في حين كان بعض الأعيان ينتمل كليهما في وقت واحد ، غير أنهم كانوا يخلمون الحذاء الخارجي المسمى «بالجرموك» عند دخول المساجد أو القصور .

ملابس النساء

تطورت ملابس النساء في العهد العباسي تطوراً محسوساً عما كانت عليه في العصر الأموي<sup>(١)</sup> إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية لغطاء الرأس «البرنس» المنضد بالجواهر والحلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى «عليه» أخت الرشيد ؛ وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب<sup>(٢)</sup> بزئار البرنس للزينة ؛ أما نساء الطبقة الوسطى فكان يزين رؤوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، ويلفن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، وكان هذا اللباس بالغاً حد الأناقة والبهاء ، ولهذا ظل مستعملاً حتى زمن متأخر جداً كذلك كن يلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معصمهن وأزنادهن ، ولم يكن يجهن أدوات التجميل ؛ ومن الجلى أنهن أخذن فن صبغ الشفاه والحدود عن الفارسيات اللواتي كن يستعملنه منذ أقدم العصور ، مع أن نقطة الحسن الاصطناعية كانت مما يتجمل بها الأعرابيات . وكان من أوصاف الفتاة الجميلة

(١) كانت الست زبيدة كزوجها تؤثر على طرز اللباس في عصرها ، ويعزى إليها اختراع الأحزمة والنعال المرصعة بالجواهر .

(٢) مع أن ملابس الرجال تغيرت تغييراً عظيماً في القرون السالفة ، فإن طراز لباس النساء لم يدخل عليه تغيير يذكر .

أن تكون طويلة القامة ، نحيفة القوام ، متناسبة أعضاء الجسم ، بيضاء البشرة ، ذات عينين واسعتين سوداوين<sup>(١)</sup> .

مركز المرأة

لم يكن مركز المرأة في العهد العباسي يختلف عما كان عليه في العهد الأموي ، إذ لم يعم في الواقع نظام إقصاء النساء إلا في عهد « القادر بالله » الذي عمل أكثر من غيره من الخلفاء المتأخرين على تعطيل نهضة العالم الإسلامي ، وتحدثنا الرواية العربية أن ابنتي عم المنصور سارتا في عهده إلى ميدان القتال ، واشتركتا في إحدى المعارك الفاصلة التي دارت بين الجيش العباسي وبين مروان الأموي ، كذلك كانت بعض السيدات في عهد الرشيد يمتطين سهوات الجياد ، ويقدن الجنود إلى ميدان الوغى ؛ والمأثور عن أم المقتدر أنها كانت ترأس بنفسها المحكمة العليا ، كما كانت تجلس للمظالم ، وتستقبل الأشراف والسفراء الأجانب . والمعروف أن المجالس التي كانت تعقدها النساء المثقفات لم تعطل إلا في عهد « المتوكل » ؛ وتقول لنا الرواية : إن النساء في عهده الرشيد والمأمون كن يناظرن الرجال في شتى نواحي الثقافة والفكر ، ويشتركن في نظم القصائد وبعث روح الحياة في المجتمعات بكاملهن وبهائهن ، وكانت الملكة زبيدة سيدة موهوبة ، وشاعرة مثقفة ، وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها المفرغة في أبيات شعرية إلى الرشيد ، وتدل القصيدة<sup>(٢)</sup> التي أرسلتها إلى المأمون بعد مصرع ولدها الأمين

(١) غير أن شهرة زرقاء اليمامة تؤيد لنا إعجاب العرب بالعيون الزرقاء .

(٢) ينسب ابن الأثير (ص ١١٨ ج ٦) هذه القصيدة إلى خزيمة بن الحزن الذي رثى

الأمين على لسان أمه زبيدة وهي مخاطب المأمون ، وفيها يلي بعض أبياتها :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| لخير إمام قام من خير عنصر   | وأفضل سام فوق أعود منبر    |
| لوارث علم الأولين وفهمهم    | ولملك المأمون من أم جعفر   |
| كتبت وعيني مستهل دموعها     | إليك ابن عمي من جفون ومحجر |
| وقد مسني ضر وذل كآبة        | وأرق عيني يا ابن عمي تفكري |
| وهت لما لايت بعد مصابه      | فأمرى عظيم منكر جد منكر    |
| سأشكرو الذي لقيته بعد فقدمه | إليك شكاة المستنظيم المقر  |

على ذكاء خارق ، وشعور فياض . أما « بوران » فقد سبق أن ذكرنا خلاصها .  
ويصف لنا مؤلف الأغاني عبيدة الطمبورية<sup>(١)</sup> التي عاشت في عهد المأمون  
والمعتصم بأنها كانت على جانب عظيم من الجمال والفضيلة والذكاء ، وكانت  
تعرف بمهارة على الآلة التي عرفت باسمها ؛ كذلك تألق نجم « فضل » الشاعرة  
المشهورة في عهد المتوكل ، ويلوح أنها عاشت في قصره ردحا من الزمن حتى  
أعتقها فتزوجت وعاشت في بغداد ، ويأتي شعرها في الطبقة الأولى من الشعراء ؛  
كما كانت فخر النساء « شهدة الكاتبة » — التي تألق نجمها في القرن السادس  
المهجري — تحاضر في بغداد في التاريخ والشعر ؛ وكانت أم المؤيد زينب التي  
عاشت في حوالى مستهل القرن الثاني عشر الميلادي ، ومنتصف السادس  
المهجري<sup>(٢)</sup> معدودة من أشهر الفقهاء ، وقد أدركت جماعة من أعيان العلماء ،  
وأخذت عنهم رواية وإجازة ؛ وفي عهد صلاح الدين اشتهر ذكر تقيّة بنت أبي  
الفرج الشاعرة المشهورة ، وكانت تحاضر في الحديث .

وبالرغم من الانحطاط الذي عم البلاد في القرن الحادي عشر ، وانحلال  
الروابط الاجتماعية والسياسية في آسيا الغربية كانت المرأة لا تزال ، وخاصة في  
شيراز ، مثار إعجاب الفرسان ، ومحط العناية والاهتمام ، إذ كانوا يعتبرون الزواج  
رابطة مقدسة ، كما كانوا يعتبرون الأطفال وبالأخص البنين منهم نعمة من نعم  
الله ، وكان يوكل أمر تربيتهم إلى الأم في بادئ الأمر ، فإذا ماشبوا عن الطوق  
أرسلوا إلى المدرسة أو الكتاب ، أما البنات فكان ينشأن على الفضيلة وصفاء  
السريّة<sup>(٣)</sup> .

الموسيقى لم تكن الموسيقى في العهد العباسي قد قاومها الفقهاء بعد ، فكان الرجال  
والنساء يعملان على رفع شأنها ، وكانت الأميرة عليّة ، وهي معروفة بفضلها

(١) كتاب الأغاني الجزء ٩ ص ١٣٤ .

(٢) ولدت سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) وتوفيت سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨-١٢١٩م) .

(٣) كتاب الاعتبار ص ١٠٠ .

وورعها إحدى شهيرات عصرها في الموسيقى ، ولها ذوق سليم في وضع الأتغام والألحان ، وقد شاد صاحب كتاب الأغاني<sup>(١)</sup> بتأليفها ، ولم يكن أخوها إبراهيم يقل عنها نبوغاً وحذقاً ، كما كان الخليفة الواثق عالماً بالموسيقى مشهوراً بالعرف ، وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية يشتركن في حفلات موسيقية خاصة تسمى « بنوبات الخاتون » ، وكانت فرقة العزف تتشكل من مائة عازف يديرها رئيس كما يديرها رئيس « الأوركسترا » في العصر الحاضر ، أي بطريقة التلويح بالمصا طبق الألحان .

الأتامات والرياش

كان قد ذاع استعمال الكراسي والمقاعد في العهد الأموي ، واقتنى العباسيون النمازق والديوان وهو عبارة عن مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها تفرش على جوانب الغرفة ، وكانوا يجلسون إلى الطعام على الديوان أمام مناخذ مصنوعة من الأبنوس أو الصدف أو المحار . وكان للواثق خوان من الذهب توضع عليه صينية كبيرة مستديرة من الفضة أو النحاس ، مغطاة بقماش أبيض فيه صحاف الفضة الصيني ، في حين كانت تستعمل عامة الناس صحاف النحاس ، وكانت توضع بجانب كل صحفة معالق من الصين أو الأبنوس مع الخبز ، أما الأشواك — التي كانوا يسمونها أنجال (وبالفارسية جنكال) — فلم يكن يستعملها سوى الأغنياء ، وكان يقدم (الشربت) وهو الشراب الاعتيادي في أكواب من الزجاج ذات أغطية ، ويصنع من الماء والسكر المزوج بمسحوق زهر البنفسج أو الورد والتوت أو القرصيا ، أما الخمر فكانوا يستحضرونها من التمر أو الزبيب . ويحدثنا المؤرخون أن الوزراء كانوا يعقدون في منازلهم مجالس يحضرها القضاة والفقهاء لارتشاف كوؤس القهوة<sup>(٢)</sup> . وقد استعمات كلمة (النديم) لأول مرة في عهد الرشيد ولم تكن تحمل في أطوائها أى معنى يحط من قيمتها ، وكان

(١) وهو أيضاً مؤلف تراجم الموسيقىات (كتاب الفيان) .

(٢) يقال إن القهوة المصنوعة من البن لم تكتشف إلا في سنة ١٦٥٦ م من قبل شخص

اسمه الشيخ عمر على مقرية من مخا غير أنه لم يم استعمالها إلا في القرن التالي .

من أول واجباته تسلية مولاة بكياسته وظرفه وحسن تصرفه .

ومن بين الألعاب التي كانوا يتلهون بها داخل المنازل لعبة الشطرنج التي أدخلها الرشيد في آسيا الغربية ، وانتشرت بسرعة عند العرب حتى حلت محل الورق والزهر ، ومنها أيضاً الرمي بالنشاب والصيد بالبندق ولعبة الجوكان والصولجان والجريد ، وكذلك سباق الخيل والمصارعة والمبارزة والقفز سواء على الأقدام أو على متون الخيل في الميادين العامة أو المباراة (بالجريد) ، وكان للمبارزة والسباق في الحلبة شأن وأى شأن في العاصمة والحواضر الكبرى . كذلك كانوا يلعبون الصولجان والكريكيت والتنس ويسمون بها لعبة « القراح » . أما النساء فكان يمارسن لعبة الرمي بالسهم ، ولم يكن الرقص في بادئ الأمر مقصوراً على الطبقات المحترفة فحسب ، بل كثير من فتيات الطبقة الراقية كن يشتركن في الرقص أيضاً ، بيد أن تكاثر الجوارى والراقصات المحترفات أدى إلى انحطاط مستوى الشعب بسرعة .

كان الصيد تساية للملك والأعيان ، فكان الخلفاء العباسيون — ما عدا القليل منهم — مولعين بهذا الضرب من الرياضة ، وتدانا الكتب التاريخية على أنهم كانوا إلى عهد « المستنجد » يقومون برحلات صيد منظمة ، ويقال إن حب صلاح الدين للصيد كاد يوقمه هو وأولاده ذات مرة في قبضة الصليبيين ، وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير والفهود والغزلان على أنواعها والطيور والجوارح .

وكانت المجالس الاجتماعية والحلقات الأدبية تعقد في منازل الأعيان حيث كان يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة ، وفي عهد المأمون نشأت النوادي الأدبية التي كان يؤمها العلماء للبحث والمناظرة وبخاصة في المواضيع الفلسفية ؛ ومع أنهم كانوا يلاقون ضروب الاضطهاد والأخص في عهدى التوكل والامتضد إلا أنهم ظلوا يواصلون الاجتماعات ويزيدون في ثروة الفكر الإنساني حتى سقوط

بغداد؛ وكان (الوراقون) بائعو الكتب يحتلون مركزاً مهماً في الهيئة الاجتماعية في ذلك الحين، إذ كانت مكاتبهم ملجأ يقصده طلاب العلم والعلماء، وفي تلك المكاتب بصفة كونها أماكن محايدة كان يجتمع فيها المعتزلة والأشعرية ويتجادلون في القضاء والقدر والتجسيم وبعث الأرواح في أشكالها الجسدية وما إلى ذلك؛ ولم يكن أصحاب المكاتب يقتصرون على بيع الكتب فحسب بل كانوا أيضاً يعملون على نشرها بين الجمهور، إذ كان فن الكتابة قد وصل إلى درجة عظيمة من الكمال، بحيث أصبح في الإمكان عرض أحسن الكتب على الجمهور بأثمان زهيدة لا تزيد على الدينار الواحد أو ما يساوي ثلاثة عشر شلناً وست بنسات. ليس من السهل أن نلم في الصفحات القليلة من هذا الكتاب بما أسداه العرب من الخدمات الجليلة إلى الفكر الإنساني في خلال الخمسة القرون، ولكننا نرى مع ذلك أن هذا البحث لا يكون كاملاً ما لم نأت على وصف موجز لما قام به العرب من الأعمال في ترقية العالم ونهضته. وقد ذكرنا فيما تقدم مبلغ ازدهار الفنون والآداب والعلوم في عهده الرشيد والمأمون، وسنقتصر في البحث التالي على أهم خصائص الناحية الفكرية في التاريخ العربي.

اختراع العرب البوصلة البحرية التي ساعدتهم على القيام برحلات إلى جميع أنحاء العالم طلباً للعلم أو الاتجار، فأسسوا المستعمرات من شاطئ أفريقيا حتى جزائر الأرخبيل الهندي وعلى سواحل الهند وجزيرة مالايا، وتوغلوا في بلاد الصين، وغدت البصرة ثغراً تجارياً هاماً تتجر مع الهند وكاثاي، واخترقت قوافلهم شمالي أفريقيا وصحراءها عن طريق المغرب، ونقلوا البضائع من ثغور البحر الأبيض المتوسط إلى أسبانيا وصقلية وإيطاليا وفرنسا، وأصبحت طرابزون حلقة التجارة مع الدولة البيزنطية، ونشطت قوافل بغداد إلى أواسط آسيا وشمال الهند بحداء الخليج الفارسي، وامتدت تجارتهم إلى بحر قزوين والبحر

البوصلة البحرية

الأسود ، وتغلغلوا في روسيا حتى وصلت النقود العباسية إلى شواطئ البلطيق وداخل السويد .

اكتشافات  
العرب

كذلك اكتشفوا الآزور ، والمظنون أنهم وصلوا إلى أمريكا وقاموا في القارات القديمة بحركة لم يسبق لها مثيل في تشجيع مختلف النشاط الإنساني ، وقد أوصى النبي العربي (ص) بأن يعمل المسلم لديناه كأنه يمشي أبداً ، وذكر أن الاجتهاد من الإيمان ، كذلك أوصى بمزاولة التجارة والزراعة ، وقد أثرت هذه التعاليم والأحاديث تأثيرها الطبيعي في قلوب المؤمنين ، وكانت طبقات التجار والصناع والزراع ينالون ضروب الاحترام والتوقير ، ولم يكن الحكام والقواد وكبار رجال الدولة يستكفون من أن يسموا بأسماء منهمم التي كانوا يمتنونها من قبل . أما رهط العلماء والأدباء الذين تألق نجمهم في ذلك العهد الطويل ، فقد وجهوا همهم إلى جميع فروع الدراسات ، ولم يتركوا موضوعاً إلا وأشبعوه بحثاً وتمحيصاً ، فألقوا في النحو والآداب والبلاغة وفلسفة اللغات والجغرافية والحديث والرحلات ، كما ألقوا معاجم اللغة والتراجم ، وزادوا في ثروة العالم التاريخية والشعرية ، وأضافوا إلى كنوز العلم أمحانا جديدة ، كما شجعوا الحركة الفكرية بمناقشاتهم الفلسفية ؛ و إنا نجد السيو « سيديو » لا يعدو الواقع في قوله « إن الكنوز الأدبية العظيمة التي أوجدها العرب في ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمي واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلاً على نشاطهم الفكري ، وتؤيد الرأي القائل بأن العرب هم أساتذتنا في كل شيء ، إذ أنهم زودونا بمواد جلييلة القيمة في تاريخ العصور الوسطى ، وبأسفار مجيدة في التراجم ، وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها ، وفنا معمارياً آية في الروعة والجمال ، واكتشافات هامة في الفنون والصناعات » . ومما هو جدير بالذكر أن العرب في أثناء ذلك العهد واصلوا بحوثهم العلمية المختلفة بنشاط عظيم ، كما وجه أقدر العلماء جهودهم إلى الكيمياء وعلم النبات والجيولوجيا والتاريخ الطبيعي ؛ ويعتبر أبو موسى جعفر الكوفي هو المؤسس الحقيقي لفن

الكيمياء الحديثة ، وقد حذا حذوه رجال تثير أعمالهم الحميدة وإبداعهم وغبارة معلوماتهم ودقة ملاحظاتهم إعجاب أشهر علماء العصر الحاضر . ويقال إن علم الطب وفن الجراحة قد تطورا على أيديهم تطورا هاما ؛ ولا ننسى كذلك أنهم هم الذين اخترعوا علم القربزين ، وإليهم يرجع تأسيس العيادات الخارجية ، وتشيد المستشفيات العامة التي أطلقوا عليها اسم دار الشفاء أو مارستان (مختصر بمارستان) .

كذلك أنشئت في بغداد وفي معظم الحواضر حدائق فسيحة لدراسة علم النبات والأزهار، حيث كان أشهر العلماء يلقون المحاضرات على الطلاب . فكان نهضة إحياء العلوم في الدولة العباسية لم تكن إلا مظهراً من مظاهر النهضة العامة التي وسعت كل شؤون الحياة فيما بعد ، شأن نهضة (Renaissance) القرن التاسع عشر في أوروبا ، إذ قام العلماء برحلات إلى البلاد الأجنبية ودونوا حقائق هامة عن أهلها وأرضها ؛ ومن أشهرهم مسلم بن حمير<sup>(١)</sup> وجمفر بن أحمد المروى وابن فضلان وابن خرداذبة<sup>(٢)</sup> وجيهاني والمسعودي والأصطخري<sup>(٣)</sup> وابن حوقل<sup>(٤)</sup> والبيروني<sup>(٥)</sup> وياقوت الحموي<sup>(٦)</sup> صاحب معجم البلدان ، والبكري والمقدسي والإدريسي .

وقد زار البيروني<sup>(٧)</sup> بلاد الهند وأقام ردها من الزمن بين أهلها حيث درس

(١) سنة ٨٤٥ م .

(٢) عاش في زمن المعتضد وتوفي حوالي سنة ٩١٢ م .

(٣) عاش حوالي سنة ٥٩١ م .

(٤) توفي حوالي سنة ٩٧٦ م .

(٥) توفي في غزاة سنة ١٠٣٨ م .

(٦) ولد مؤلف معجم البلدان سنة ١١٧٥ م ، وتوفي سنة ١٢٢٩ م .

كان البكري (أبو عبيد عبدالله) أندلسيا وقد توفي سنة ١٠٩٤ م . وتوفي الأدريسي

سنة ١١٦٤ م .

(٧) كان أبو ريحان محمد بن أحمد من أهالي خوارزم ، وقد تألق نجمه في عهد محمود

ملك غزاة .

شتى لغاتهم ومختلف علومهم وفلسفاتهم وآدابهم ، وأطلع على تباين عاداتهم وأخلاقهم وقوانينهم وتعدد دياناتهم وخرافاتهم ، وأحوال بلادهم الجغرافية والطبيعية ، ثم صنف كتاباً جمع فيه ما عن له من الملاحظات السديدة ، ومزجها بأقوال فلاسفة اليونان أمثال هوميروس وأفلاطون ، كذلك له عدة تاليف في الفلك والرياضيات والجغرافية الطبيعية والكيمياء والتاريخ والطبيعات .

كذلك نبغ الرحالة المشهور والأديب المعروف ناصرى خسرو المولود في قرية كوبيديان ، فقد قام برحلته المشهورة في سنة ١٠٤٦ م فزار نيسابور ، وقم ، وتبريز ، وخلاط ، وحلب ثم الشام ، ومنها عرج على صور وصيدا والقدس ، ثم سافر إلى مصر فالحرمين والأحساء والبصرة ، ومن ثم قفل راجعاً إلى بلخ ، ويعد كتابه المسمى بالسفرنامه<sup>(١)</sup> (Safar Nameh) من أشهر كتب الرحلات في جميع اللغات .

التاريخ

وقد كانت كتب التاريخ في ذلك الحين من الضروري أن تشمل على علم الآثار والسلالات البشرية وخصائصها ، وقد تفرغ بعض قادة الفكر إلى هذه الدراسات ، ومنهم البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م وهو مولود في بغداد ، وفيها وضع كتبه العديدة ولا سيما « فتوح البلدان » الذي وضعه بأسلوب بارع يدل على أنه خطأ خطوات واسعة في تفهم روح التاريخ ؛ كذلك أنف المزداني الذي تألق نجمة في أواخر القرن الثالث ومستهل القرن الرابع الهجري - تاريخاً شاملاً لجنوب جزيرة العرب فصل فيه أحوال القبائل وآثارها ، وعقد فصلاً خاصاً عن جغرافية اليمن ، وبحث في سلالة سكانها ؛ وبالرغم من كل ذلك فإن نشاط الفكر العربي في ذلك العهد يبدو لنا واضحاً جلياً في مؤلفات السعدي والطبري وابن الأثير ، وقد نبغ هؤلاء ومن خلفهم<sup>(٢)</sup> من المؤلفين المشهورين

(١) طبع السيو شيفر (Schefer) منه بالفارسية وترجمته بالفرنسية مع الحواشي والتعليقات .

(٢) أمثال القرظي وابن خلدون وأبي الفداء وأتباعهم .

أمثال المقریزی وابن خلدون وأبی الفداء فی وضع الموسوعات والمصنفات الفاسفية والرياضية والجغرافية والتاریخية . وتقول الروایة : إن « السعودی » من أمرة نشأت فی بغداد ، وإن كانت تنتسب فی الأصل إلى قبيلة من قبائل الشمال ، وتقوم معظم شهرته على طوافه فی أوائل شبابه فی معظم أنحاء العالم الإسلامی ، فزار الهند ومولتان والمنصورة وفارس وكرمان ، ثم قفل راجعاً إلى الهند حيث أقام مدى حین فی كباجة والدكن ، ومنها شد الرحال إلى جزيرة سيلان ، ثم أبحر إلى كبالو (مدغشقر) وعاد إلى عمان ، ولعله وصل إلى شبه جزيرة الصين الهندية وبلاد الصين ، ثم توغل فی أواسط آسيا ووصل إلى بحر قزوين ، وبعد أن قام برحلاته العديدة عاش مدة بطيرية وأنطاكية ، ثم عاد إلى البصرة حيث ألف كتابه المشهور « مروج الذهب » ، ثم نزل الفسقاط (القاهرة) حيث وضع « التنبیه ومرآة الزمان » وهو كتاب ضخم لم یبق منه إلا النزر اليسیر ، وهو يذكر لنا فیه اختبارات الواسعة بأسلوب شیق جذاب ، يدل على أن صاحبه جاب أكثر أنحاء العالم واختبر الحياة حلوها ومرها ، كذلك اعتنى بوجه خاص بأن يكون كتابه خلواً من الأسانید والإسهاب الممل ، كما ضمنه كثيراً من الحوادث المدهشة الجذابة ، وصور لنا أحوال الأمم وأخلاقهم ونواديرهم بتمارة نادرة المثال . وهو یلقب « بأبی جعفر محمد بن جریر » المتوفی فی بغداد سنة ٩٢٢ م .

الطبری

وتاریخه مرتب على السنین ینتهی إلى حوادث سنة ٩١٤ م وقد زاد علیه ابن الأثیر ما حدث بعده إلى نهاية القرن الثاني عشر . وهو یلقب « بعز الدين » من أهالی جزيرة بنی عمر فی العراق ، ولاكنه كان یقیم بضواحي الموصل حيث كانت داره الجميلة مؤنل الأدباء والاهماء . أما تاریخه العام المشهور « بالكامل » فینتهی إلى حوادث سنة ١٢٣١ وهو یضارع أحسن كتب التاریخ العصرية فی أوربا ، وللهؤاف أيضاً تاریخ «أتابكة» الموصل . نبغ العرب فی جميع مناحی الدراسات العلمية فاشتهر « ماشاء الله » و «أحمد

ابن الأثیر

النجوم والفلک

ابن محمد النهاوندى « أقدم فلكي العرب في عهد المنصور ، كذلك برع في عهد  
الأمون فلكيون مشهورون أمثال « سند بن علي » و « يحيى بن أبي منصور »  
و « خالد بن عبد الملك » ؛ ومن أعمالهم المأثورة أنهم رصدوا الكسوف والخسوف  
والاعتدال الشمسي وشبح المذنبات ، وظاهرات فلكية أخرى أضافت .ملومات  
جديدة إلى ثروة الفكر الإنساني ؛ وبأمر الأمون ترجم محمد بن موسى الخوارزمي  
كتاب السيد هنتا<sup>(١)</sup> أو الجدول الهندي بحركات الكواكب ؛ وألف الكندي  
مائتي كتاب في مختلف المواضيع كالحساب والهندسة والفلسفة وعلم الظواهر  
الجوية والبصريات والطب ؛ وقد تخصص أبو معشر البلخي في الرياضيات ،  
وتعمق في علم النجوم وألف فيه كتباً كثيرة ، وظل حسابه المشهور باسمه .من  
أعظم مراجع العلوم الفلكية ؛ وكان « موسى بن شاكر » مهندساً بارعاً في عصر  
الرشيد ، كما نبغ أولاده في عهد الأمون والمعتصم والوائق ، واشتهروا في علم النجوم  
وقاسوا للأمون درجة خط نصف النهار ، واستعملوا فيها محيط الأرض ، وقاموا  
باكتشافات مذهشة في حركة الشمس وبعض الكواكب الأخرى ، وتحققوا  
من حجم الأرض وانحراف سمت الشمس ؛ أما « أبو الحسن » فقد اخترع آلة  
الرصد ( التلسكوب ) الذي يصفه بأنه أنبوب مثبت في طرفيه عدسات ، وقد  
واصل « النايزيري » و « محمد بن عيسى أبو عبد الله » أبحاث « بنى شاكر » ،  
كذلك كان « البتاني »<sup>(٢)</sup> فلكياً مشهوراً ترجمت حساباته الفلكية إلى اللغة  
اللاتينية ، واعتمد عليه العلماء في أوروبا عدة قرون ؛ ومن جملة الفلكيين  
المشهورين الذين عاشوا في بغداد في نهاية القرن العاشر « علي بن أماشور » ،  
و « أبو الحسن علي بن أماشور » المعروفان « بينى أم.شور » ، ومن مآثرهما

(١) جاء في كتاب تراجم الحكماء « أن المنصور أمر بنقل كتاب « السيد هنتا »  
إلى العربية وأن يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب ، فتولى ذلك  
محمد بن إبراهيم الفزارى » . (المغرب)  
(٢) توفي سنة ٩٢٩ م .

احتساب حركات القمر . كذلك نبغ في عهد « آل بويه » رهط من الفلكيين والأطباء والرياضيين أشهرهم « الكوهي » وأبو الوفاء ، فدرس الأول منهما حركة الكواكب ، وتعد اكتشافاته على أعظم جانب من الأهمية العلمية . أما أبو الوفاء فهو من أهل خراسان ولد سنة ٩٣٩ ، ووفد إلى العراق سنة ٩٥٩ ، وتفرغ لدراسة الرياضيات والفلك ، وهو الذي ابتكر الخط المماس المستعمل في حساب المثلثات والرصد الفلكي .

وكان ابن يونس المتوفى سنة ١٠٠٩ فلكياً مشهوراً ورياضياً بارعاً ، وقد واصل اكتشافاته كل من ابن النابدي المتوفى في القاهرة سنة ١٠٤٠ ، والحسن ابن الهيثم المعروف في أوروبا بالهازن ، وقد تألق نجمة في أواخر القرن الحادي عشر وكان فلكياً مشهوراً وعالماً كبيراً ، ولد في الأندلس ولكنه عاش في مصر ، واشتهر في أوروبا بتأليفه في علم البصريات التي ترجم أحدها إلى اللغات الأوربية ؛ ولا ننسى في ختام هذا البحث عمر الخيام ، الشاعر العظيم ، والرياضي الفلكي المشهور .

أما الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة فقد برع فيها العرب براعتهم في علوم الفلك والرياضيات ، وأشهر من درس الفلسفة من العرب وأذاعها في المشرق الكندي والفارابي وأبو علي بن سينا ، ويعرف هؤلاء بأنهم أشهر فلاسفة العرب على وجه الإطلاق ؛ ويسمى « الكندي يعقوب بن أسحق <sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٨٦١ م بفيلسوف العرب ، ويعرف « أبو نصر الفارابي <sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٩٥٠ عند العرب بأرسطو الثاني وهو معلم ابن سينا <sup>(٣)</sup> الذي كان من أعظم أبطال الفكر وأشهر الأطباء الذين أنجبهم العالم ، وهو معروف في أوروبا باسم (avicenna) وله شهرة عالمية واسعة .

الفلسفة

(١) توفى سنة ٨٦١ م .

(٢) توفى سنة ٩٥٠ م .

(٣) توفى سنة ١٠٣٧ م .

يصعب أن تقدم مجموعة تاريخية من الشعراء الذين نبغوا في ذلك العصر ،  
ونظّموا القصائد بالعربية والفارسية ، ويستطيع القارئ أن يراجع « الأغاني »  
و « ابن خلكان » لمعرفة جميع الشعراء المشهورين ، ولكننا نكتفي في هذا  
المقام بسرّد أسماء بعض الشعراء لندلل على خصوبة الفكر العربي <sup>(١)</sup> .

تألّف نجم أبي نواس <sup>(٢)</sup> في عهد الأمين وهو يعد في طبقة امرئ القيس  
أحد الشعراء المشهورين في الجاهلية ، ويليه في المرتبة أبو تمام حبيب <sup>(٣)</sup> الذي  
يقول فيه « ابن خلكان » : « لقد فاق معاصريه في صفاء الأسلوب وحسن الديباجة  
وبلاغة العبارة » ؛ كذلك نبغ البحترى في القرن التاسع عشر ، فجمع ديوان  
الحجاسة كأبي تمام ؛ غير أن أبا الطيب المتنبي <sup>(٤)</sup> فاق معظم المتقدمين من الشعراء  
وكان يتمتع بعطف سيف الدولة أمير الدولة الحمدانية في الموصل . ومن بين الشعراء  
الذين نظموا بالفارسية الدقيق والفردوسي في عهد السلطان سنجار ، وفريد الدين  
الصيدلي الذي قتله التتر ، وجلال الدين الذي تألّف نجمه في عهد السلطان إبراهيم  
سلطان غزنة .

(١) تقسم الشعراء إلى أربع طبقات :

- ١ — المجاهليون ويمتازون بالبساطة والحشونة وأشهرهم أصحاب اللغات .
- ٢ — المخضرمون وهم وسط بين البداوة والحضارة وأشهرهم حسان بن ثابت وكعب  
ابن زهير وجريير والأخطل والفرزدق . ويقول ابن خلدون : « لما جاء القرآن وشاع حفظه  
وعنى الناس بجمع الآداب ارتقت أذواقهم في البلاغة ، ولذلك كان الشعراء الإسلاميون أعلى  
طبقة في البلاغة من شعراء الجاهلية ، فحسان بن ثابت ، وعمر بن أبي ربيعة ، والحطيئة  
وجريير والفرزدق ونصيب وذو الرمة والأحوص أرفع طبقة في البلاغة والتفنن في أساليب  
التعبير من شعر النابغة الذبياني وعنتر العبسي وابن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة .
- ٣ — المولدون وهم معاصرو الرشيد والمأمون ، ويمتازون بالركة والملاحة وأشهرهم  
بشار بن برد وأبو العتاهية وأبو نواس وأبو تمام والبحترى .
- ٤ — وأما الطبقة الرابعة فهم الذين اشتهروا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلم الكلام  
وفي شعرهم صبغة فلسفية مثل المتنبي والمرى والشريف الرضي وصفي الدين الحلي .

(المغرب)

(٢) ولد سنة ٧٦٣ م .

(٣) توفي سنة ٨٤٥ م .

(٤) قتل سنة ٩٦٥ م .

وكان أول من كتب في التراجم « أبو الفرج محمد بن إسحق<sup>(١)</sup> » الملقب بابن النديم ، فأودع كتابه الفهرست ضروبا شتى من العلوم والمعارف ، وذكر عدة مؤلفين ومؤلفات مدللا على خصب الإنتاج الأدبي عند العرب ؛ وبعد كتاب ابن خلكان<sup>(٢)</sup> — المسمى بوفيات الأعيان — مجموعة فريدة من التراجم المزروجة بمختلف الفوائد الأدبية والعلمية ؛ وكان سيف الدولة من أعظم مشجعي أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني<sup>(٣)</sup> مؤلف كتاب الأغاني المشهور ، وليس هذا الكتاب كما يدل اسمه مجموعة من الأغاني فحسب ، بل يحتوي أيضاً على تراجم جميع الذين أنفوا في الأصوات وأشعارهم ، ويشتمل فوق ذلك على فوائد ذات بال في تاريخ العرب وآدابهم .

الخط العربي

كان فن الخط العربي معروفا عند قريش قبل انتشار الإسلام بقليل ويقال إن الذي اخترعه هو « مورامير بن مراسا » من أهالي الأنبار قرب الحيرة ، ولما انتقل الخط إلى الحيرة تعلمه حرب<sup>(٤)</sup> بن أمية خلال زيارته لعاصمة المناذرة<sup>(٥)</sup> ثم علمه لجماعة من أهل مكة فانتشر بين قريش ، ويظهر أنه كان لسكان اليمن الحيريين أسلوب خاص في الكتابة لعله كان صوتياً . ويقول ابن خلكان إن آل حمير كانت لهم كتابة خاصة تسمى بالمسند حروفها منفصلة غير مرتبطة ، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها ، ولم يكن ليجرؤ أحد على استعمالها دون إجازة ؛ فلما جاء الإسلام لم يكن في اليمن من يعرف القراءة والكتابة .

وفي نهاية العهد الأموي تطور الخط الكوفي إلى عدة أشكال كان أعماها الخط النسخي ، وفي نهاية القرن العاشر ، ومستهل القرن الحادي عشر أدخل

(١) سنة ٩٨٧ م .

(٢) ولد سنة ١٢١١ م وتوفي سنة ١٢٨٢ م .

(٣) توفي سنة ٩٦٧ م .

(٤) هو جد معاوية بن أبي سفيان .

(٥) يقال إن معلمه اسمه اسلام بن سدره .

الخطاطان العربيان المشهوران أبو الحسن المعروف بابن البواب وأبو طالب المبارك تحسينات جمّة على الخط النسخي ، وفي عهد صلاح الدين ذاع خط عمرىس يسمى بالثلاثي ، ويظهر أنه مأخوذ عن الخط النسخي والخط نستليقي الفارسي .

المذاهب

تعددت المذاهب — كما كان متوقفاً — خلال ذلك العصر ، غير أن المذهب الرسمي للدولة كان المذهب الحنفي أو «الأشعري» كما كان يسمى في تلك الأيام ، غير أن الحنابلة كانوا يتغلبون على علماء الحنفية إذ كانوا يميلون إلى الشغب فاحتلوا بذلك مكانة سامية في قلوب رعاي بغداد ، وأصبح لهم عليهم نفوذ لا يقاوم ، وكان المذهب الشافعي ينتشر بين المتعلمين ، كما اعتنق الكثير من أهالي الشام وثغور فينيقية المذهب الشيعي ، وطغمتوا بكتسحون أمامهم المذهب الحنبلي الصارم . ومن أعظم ميزات تاريخ الفلسفة الدينية في القرن الرابع الهجري ( القرن العاشر الميلادي ) انتعاش حركة المذهب العقلي انتعاشاً غير اعتيادي ، ويرجع ذلك على الأرجح إلى تآليف المفكرين أمثال المسعودي والزمخشري وإلى الفلاسفة أمثال الكندي والفارابي .

المتزلة

حاول رجال المتزلة أن يوفقوا بين العقيدة والعقل ، وبين الدين والفلسفة ، وقد صلافت هذه الحركة — بطبيعة الحال — هوى عند المستنيرين ، فأقبل أهل المذهب الحنفي الذين كانوا قد تمسكوا بعقيدتهم متأثرين ببعض النقاط المذهبية الاعتيادية على اعتناق مذهب المتزلة<sup>(١)</sup> بياعث الآراء الفلسفية ، وقد

(١) يقول العالم المستشرق الفريد جيوم Alfred Guillaume في رسالته عن الفلسفة والإلهيات في كتاب Legacy of Islam حول مذهب الاعتزال مايلي :

وإن أجل خدمة قدمها المتزلة للعالم المتدين ، قامت على جهرهم بإخضاع الدين للنظر العقلي أكثر مما قامت على إصرارهم على اعتناق مذاهب معينة كالبدء الخالد الذي يقول بالعدل الإلهي ، فلم يكونوا ليرضوا بالصمت إذا قيل لهم « قال الله تعالى » مثلا ، بل أخذوا يتساءلون عن معنى « الله » ومعنى « قال » — وقد تجلبي خطر مثل هذا الاتجاه عند هؤلاء النفر من الغلاة الذين ساروا في منحنى المتزلة شوطاً أبعد مما ينبغي حتى تردوا في اللاأدرية — أي الإلحاد الصريح . (المغرب)

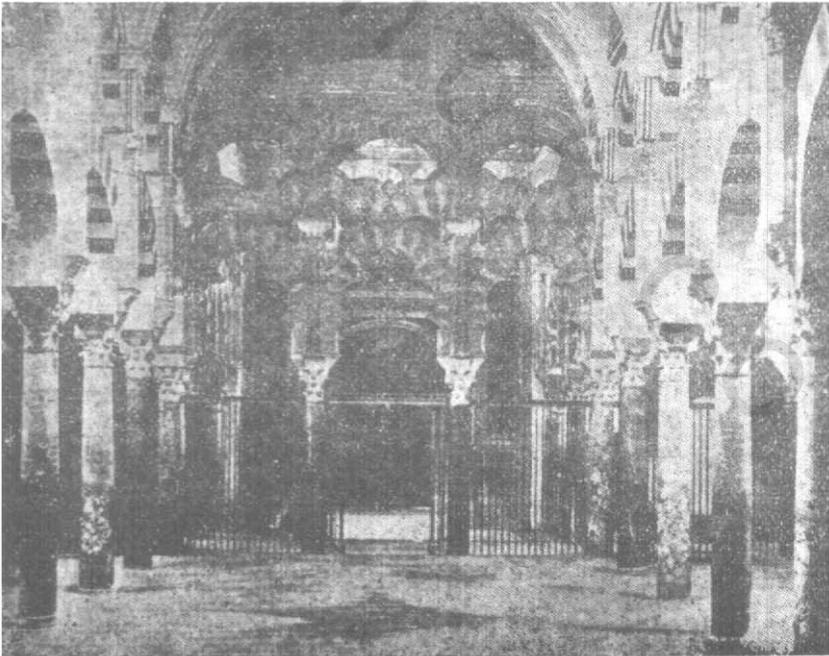
كان الميل برغم ذلك ينحو منحى الرجعية ، وبالأخص في نهاية ذلك العصر . وفي تلك المرحلة الحرجة تألفت أول جمعية لنشر العلوم والفلسفة ، ذلك أن بعض المفكرين الذين يهتمهم رفع منار الإسلام وشأن المسلمين رأوا أن علماء الدين قد تمسكوا بالقشور دون اللباب ، وأن الأغنياء قد تردوا في لذائذ الحياة والشهوات ، وأن الفقراء غدوا متعصبين تعصباً أعمى ، فألفوا جمعية سرية<sup>(١)</sup> يستطيعون بواسطتها أن يرفعوا صوت الحق داوياً بين الأهلين ، ويحولوا دون تدهور العالم الإسلامي وانحداره في تيار الجهالة والتعصب ، وأطلقوا على جمعيتهم اسم (جمعية إخوان الصفا) ، وكان أول تأليفها في البصرة ، وشروط<sup>(٢)</sup> الانتماء إليها أن يكون العضو معروفاً بحسن الأخلاق واتساع أفق التفكير ، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم بأدب وتواضع في منزل رئيس الجمعية « زيد بن رفاعة » للبحث في المواضيع الفلسفية على أنواعها بجزئية فكر ، ورحابة صدر نادرتي المثال حتى في العصور الحديثة ، ثم أسسوا فروعاً للجمعية في جميع المدن والحوضر حيث يوجد المفكرون الذين يمتازون بالمؤهلات الكافية للاضطلاع بالعمل طبق طريقتهم العملية ؛ وكان نظامهم نظاماً صوفياً راقياً ، كما كانت آراؤهم في القضايا الاجتماعية والسياسية عملية اجتهادية ، فدونوا فلسفتهم وخلصوا آرائهم في رسائل مستقلة جمعت في كتاب فيما بعد ، وسمي « رسائل إخوان الصفا » ، وقد تضمنت هذه الرسائل شتى العلوم والدراسات كالرياضيات ، وتشتمل على الفلك والجغرافية الطبيعية ، والموسيقى والميكانيكيات والفيزياء ، وتشتمل على الكيمياء ، وعلم النجوم ، وتكوين المعادن ، وعلم النبات ، وأوصاف الحيوانات (ومسقط النطفة ،

(١) جاء في كتابهم أن أساس مذهبهم أن الصريعة الإسلامية تدنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية الحكمة الاعتقادية والصلحة الاجتهادية . (المرب)

(٢) جاء في ذيل الرسائل فصل في كيفية عشرة إخوان الصفا وتطلونهم بصدق المودة والشفقة ، وأن النرض منها التضاد في الدين . (المرب)

وكيفية رباط النفس بها ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس) والمنطق ، وقواعد اللغة ، وما وراء الطبيعة ، وعلم الأخلاق ، والبعث والنشور ، وعلى الجملة فإنهم جمعوا في تلك الرسائل سائر أنواع العلوم والفلسفة المعروفة في ذلك الزمان .

وهكذا عندما تألق نجم ابن سينا في الأفق ، وأقبل العالم الإسلامي يرتشف من ممين آرائه العصرية في العلوم الاجتماعية وفي غيرها من العلوم ، وعندما طفقت طلائع النهضة (الرنسانس) في القرن الحادي عشر تبشر بأحسن النتائج وأوفرها خصوصية نشبت الحروب الصليبية الهائلة ، فحصر العالم الإسلامي جميع نشاطه في ناحية واحدة ، وهي المحافظة على النفس ، وإسكن لم تكذ انتصارات زنكي ، ونور الدين ، وصلاح الدين تنقذ العالم الإسلامي من أخطار غزو الفرنج حتى هبت عاصفة التتر الموحجا ، مكتسحة أمامها مدينة الشرق فقوضت أركانها وطمست معالمها .



المحراب في جامع قرطبة (انظر ص ٤١٠)